مظاهر المسيحية واليهودية فى الأدب المسرحى والروائى المعاصر بمصر(*)

ترجمة وتعليق : د. عبد الحميد شيحة(**)

حاول الفرنسيون الذين غزوا مصر سنة ١٧٩٨م استمالة الأغلبية المسلمة ،

(*) مؤلف هذا البحث هو الأستاذ الدكتور بيير «ج» كاكيا P.J.CACHIA وهو من أصل مالطى ، قضى زمنا بمصر يدرس الأدب الشعبى من أفواه العامة فى صعيدها .

ونال درجة الدكتوراه برسالته عن عميد الأدب العربى طه حسين التى نشرت فى لندن ، وأشار إليها المؤلف فى هذا البحث . ثم عين محاضرا بقسم اللغة العربية بجامعة إدنبرة ، وظل بها فترة طويلة قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية للعمل بجامعة كولومبيا .

عرف بدراساته المتخصصة ذات الطابع الأدبى واللغوى التى نشرها باللغة الإنجليزية ، كما ترجم بعض الأعمال الأدبية من اللغة العربية إلى الإنجليزية . وهو أحد محررى المجلة المشهورة Journal of Arabic Literature التى تطبع فى ليدن Leiden وتصدر عن قسم اللغة العربية بجامعة أكسفورد . وقد نشر هذا البحث فى عددها Vol. 11, 1971 .

والبحث الذى بين أيدينا بعنوان :

Themes Related To Christianity And Judaism In Morern Egyptian Drama And Fiction .

والترجمة الحرفية له هى (موضوعات ذات صلة بالمسيحية واليهودية فى أدب المسرح والرواية بمصر الحديثة) . وقد آثرت العنوان المذكور لأنه أكثر شمولا لغرض المؤلف حيث يتناول الموضوعات والشخصيات جميعا من ناحية ، ولأنه يتحدث عن أعمال أدبية معاصرة من ناحية أخرى ، حيث صار مصطلح الأدب الحديث مصطلحا عاما يعنى الأدب من بداية عصر النهضة الحديثة بمصر إلى الوقت الراهن ، على حين يعنى الأدب المعاصر الأدب العربى بمصر بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ على وجه التقريب . وقد اقتضت الأمانة العلمية بعض التعليقات على آراء المؤلف ، وميزناها بعلامة (*) .

(**) أستاذ مساعد بقسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة .

(مجلة البحوث والدراسات العربية ، العدد ٢٧ ، يوليو/ تموز ١٩٩٧ . – ص ص ٢٢٥ – ٢٥٣) .

بيد أن الاستجابة كانت من مسيحيى مصر الذين استطاع الفرنسيون تجنيد كتيبة قوامها ألفان منهم تحت إمرة لواء فرنسى[1]. وهذا على عكس مما حدث سنة ١٩١٩م من انتفاضة ضد الاحتلال البريطانى، حيث خرج مشايخ المسلمين إلى الشوارع رافعين الأعلام التى تجسد وحدة الهلال والصليب، وارتقى القساوسة الأقباط منابر المساجد ليظهروا تكاتفهم فى وجه العدو الأجنبى المشترك[2]. بين هذين التاريخين اللذين لا يمثلان أهمية كبيرة لهذه الدراسة، حدث تحول فى ميزان الولاء المصرى، وقد كان - على حد تعبير ألبرت حورانى[3] - تحولا من وطنية العقيدة إلى وطنية الأرض.

وليس يعنى هذا أن الإسلام قد وهنت قبضته على المصريين، بقدر ما يعنى أن الفرد فى مصر، كما فى أى مجتمع آخر، ما هو إلا مزيج من عدة انتماءات ومن عدة مشاعر عاطفية أو أيديولوجية فكرية نحو قريته ووطنه وسيادة عقيدته، بل فى بعض الأحيان تجاه مدرسته وطبقته، أو تجاه مذهب معين؛ وفى أغلب الأحوال لم تكن تتعارض هذه الانتماءات مع بعضها البعض، لأنها متداخلة، ولكنها ليست على مستوى واحد كما أنها ترمى إلى غاية مشتركة. وليس هناك من شك فى أن الانتماء الذى قررناه بالنسبة إلى مصر، كان - كما فى بقية العالم الإسلامى وحتى القرن التاسع عشر - انتماء قويا؛ وكان يمثل الباعث الأول، أو المبرر الشكلى على الأقل، للنشاط الجماعى. فباسم الدين ظلت المظاهر الاجتماعية تحيا، وعليه وضعت القوانين وطبقت، وباسم الدين أيضا أعلنت الحروب وكُفّر المارقون. ولكن تضافرت فى الفترات الأخيرة عدة

عوامل أدت إلى زعزعة هذا الإطار الراسخ.

والعامل الرئيسى، وأبو العوامل جميعا، هو تدفق الأفكار ووسائل التكنولوجيا الغربية، وهى أمور لا يمكن أن تعزى إلى النموذج الفرنسى إبان القرن التاسع عشر الميلادى، حيث كان للأفكار الليبرالية قصب السبق على الدين. وما لبثت هذه الأفكار والتقنيات أن أثمرت، ولو فى الظاهر فقط، ثمرات رائعة، لأنها لا تتطلب عقلا نافذًا أو متمرسًا حتى يُكْتشَف أن السفر من القاهرة إلى الإسكندرية بالقطار أسرع وأقل مشقة من السفر على الأقدام أو على صهوة جواد. ومن المؤكد أن قوة الإمكانيات الأوروبية قد أظهرت واستعرضت تفوق الوسائل الغربية فى احتلالها البلاد وفرض إرادتها عليها. ففى مصر القرن التاسع عشر، وجد المفكر المسلم نفسه فى وضع لا يحسد عليه عسكريا وثقافيا بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ الإسلام، وكان هذا صدمة مفزعة. ومهما كان من زيف الخلاف بين السلفيين والمجددين فقد ساعد على إذكاء ناره نفر من رجال الدين المتعصبين الذين ما برحوا يكفرون كل بدعة. ولم يعبأ بهذا رجال الإصلاح الدينى الذين أتيح لهم التعرف على الأفكار الأجنبية الجديدة، فنادوا بأنها مطابقة لما جاء به الإسلام؛ ولا يفوتنا - فى هذا المقام - أن نذكر أن البيان الذى صدر فى العدد الأول من مجلة، **العروة الوثقى** تضمن نداء إلى أهل الشرق «بأن يتشبثوا بتعاليم السلف التى كانت لا تختلف بحال عما عند هذه الأمم الأجنبية القوية». فضلا عن أن مسيرة مصر نحو الاستقلال لم تصطدم مع ازدياد الانتداب الغربى فحسب،

بل رفضت استبداد الأتراك شركاء العقيدة. بل إن ذلك لم يؤد بمصر إلى مواجهة مأساوية كما حدث فى الأقطار العربية الإسلامية المجاورة، حيث تحالف هؤلاء مع البريطانيين المسيحيين بين سنتى ١٩١٦ و١٩١٨ على قتال الأتراك المسلمين الذين كانوا بدورهم متحالفين مع الألمان المسيحيين[٥]. وفى مجال التعايش السلمى السمح كانت بمصر، كما كانت بالشام معقل الحداثة، أقلية مسيحية ذات شأن تريد مصر أن تصهرها فى الأكثرية المسلمة بغية خلق أمة حديثة.

كانت نتيجة هذا الغليان كبيرة؛ وعلى الرغم من أنها لم تغير كثيرا من نظرة العامة، فقد دفعت بطبقة المثقفين الجدد الذين تبوءوا مكان الصدارة فى دنيا الثقافة والاجتماع إلى اعتناق شعار الوطنية التى تعتبر الفرد مصريًا فى المقام الأول، ثم مسلمًا أو مسيحيًا فى المقام الثانى، وارتكزت آمالها وأحلامها على أساس من التنوير الإنسانى. وكانت حجتها أن الدين يمكن أن يلعب دورا، وخاصة فى جانبه التشريعى، ولكنه دور ثانوى وليس رئيسيًا، فكاتب شاهد على جيله كطه حسين كشف عما اعتبره صراعًا أساسيًا ومن ثم لا مفر منه، بين العلم والدين، محددا الدين فى إطار من الفطرة والعاطفة، وأخذ يحث العامة على الإفادة من الدين فيما يتصل بأمور أخراهم، ومن العلم فيما يتصل بمنافع حياتهم اليومية[٤]. وإذا كان طه حسين قد قبل بتدريس التربية الدينية فى

---

(٥) يقصد المؤلف حين تحالفت دول المشرق مع بريطانيا وفرنسا على مساعدتهما فى الحرب العظمى الأولى ضد الألمان والأتراك معًا بغية تحقيق الوعد بالاستقلال.

المدارس المصرية للمسلمين والمسيحيين على السواء، فلأنه اعتبر الدين عاملًا مهمًا فى بث بذور الوطنية المصرية[٥].

ولما كان أمرًا طبيعيًا أن تفخر أمة ناهضة بأمجاد الماضى، فقد خلف ذلك الجيل من المثقفين عددًا من الروايات والمسرحيات التاريخية، كانت فى معظمها ذات طابع إسلامى. ولكن كان الدافع من وراء هذا هو البحث عن نماذج البطولة بغض النظر عن الولاء الدينى، كما تجلى ذلك عند جورجى زيدان (١٨٦١- ١٩١٤) أحد رواد الرواية التاريخية، فعلى الرغم من كونه مسيحيًا فإنه بنى كثيرًا من رواياته على أحداث من التاريخ الإسلامى، على حين بنى رائد آخر مسلم هو أحمد شوقى (١٨٦٨- ١٩٣٢) روايته ذات الشهرة المحدودة **لادياس** ومسرحيته الأكثر شهرة **مصرع كليوباترة** على مشاهد من التاريخ المصرى القديم.

والغاية الوطنية واضحة تمامًا فى مثل هذه الأعمال، وقد تتضاعف فى أحيان كثيرة لتصبح تحذيرًا واضحًا من مغبة التعصب الطائفى. ففى فيلم (**الناصر**) **صلاح الدين** الذى كتب حواره يوسف إدريس (١٩٢٧- ١٩٩١) قصة حب فرعية تنشأ بين الرجل الثانى بعد صلاح الدين وهو مسيحى وبين فتاة من الصليبيين، وحين يتقابلان للمرة الأولى تعبر الفتاة عن دهشتها من وقوفه فى صف المسلمين، ولكنه يجيب على دهشتها بأنه ينظر إلى الصليبيين ليس على أنهم شركاء عقيدة، بل بوصفهم غزاة للوطن. وللويس عوض (١٩١٥- ١٩٩٠) المسيحى، مسرحية باسم **الراهب**[٦] بنيت على

الوعد بالاستقلال الذى قطعه الحاكم الرومانى لمصر سنة ٢٩٦ق.م لوشيوس دوميتوس دوميتانوس الذى انتحل اسم «آخيل». ويعترف المؤلف صراحة فى مقال طويل منشور بعد نص المسرحية (ص ١٣٦) بأنه لا يمكن أن يعتبر «آخيل» هذا بطلًا لأنه ليس مصريًا. وبدلا من ذلك يختار المؤلف شخصية الراهب «أبا نوفر» لا لشيء إلا لأننا لا نكاد نعرف عنه شيئا، حتى يطلق لخياله العنان فى بنائه. يظهر أبا نوفر فى المسرحية منذ البداية بأنه على خلاف مع البطريرك الذى يمنع الزواج بين المسيحيين والوثنيين حتى لو كان الأخيرون مصريين، وهو اتجاه يعتبره أبا نوفر «ضد الوطن» (ص ١٢) كما يظهر على أنه داعية للثورة ويوجه نداءه إلى كل المصريين، مسيحيين ووثنيين على السواء، موضحًا أن كل دعوات الاستقلال السابقة إنما فشلت لأنها قامت على تحالف قلق بين مصالح متنافرة. وحين يحرم من الكنيسة يتكئ على أمله فى الخلاص بقوله:

«أقول كل مصرى يفدى مصر بدمه يدخل الملكوت» (ص ٥٣).

ينتقل هذا الاتجاه بطريقة أقل حذلقة ولكنها أكثر واقعية، إلى مشهد حديث فى شخصية من شخصيات **الثلاثية**[٧] لنجيب محفوظ (ولد ١٩١٢) هى شخصية «رياض قلدس»، وهو قبطى متحرر لا يخفى رأيه فى أن «المسيحية وطنى لا دينى». ويعترف صراحة لصديقه المسلم «كمال» بأن بين الأقباط والمسلمين سلسلة من الشكوك والمشاحنات، فقد «.. نشأنا فى بيوت لا تخلو من ذكريات سود محزنة.. كان الشيخ عبد العزيز جاويش يقترح فى

الماضى أن يصنع المسلمون من جلودنا أحذيتهم ، ويسلم أيضا بوجود المتعصبين فى كلا الجانبين : « وهم عندكم يعتبروننا كفارًا ملاعين ، وهم عندنا يعتبرونكم كفارًا مغتصبين ، ويقولون عن أنفسهم إنهم سلالة ملوك مصر الذين استطاعوا أن يحافظوا على دينهم بدفع الجزية ..» ولكنه يعتبر أن المشكلة ، من حسن الطالع ، ذابت فى مشكلة الشعب كله « مشكلة الأقباط اليوم هى مشكلة الشعب ، إذا اضطهد اضطهدنا ، وإذا تحرر تحررنا » . أما عن نفسه (ويجب ألا ننسى أنه يتحدث فى فترة الثلاثينيات) فيرى أنه هناك « شىء واحد خليق بأن ينسينى هذا التنازع ، ألا وهو الفناء فى القومية المصرية الخالصة كما أرادها سعد زغلول ، إن النحاس مسلم دَيّن ، ولكنه قومى بكل معنى الكلمة أيضا ، فلا نشعر حياله إلا بأننا مصريون لا مسلم ولا قبطى .

ثم إن هناك بعد ذلك عددًا غير قليل من المسرحيات والروايات التى تعتمد على التاريخ ، أو تحاول أن تشخص فترة تاريخية ، وتتطرق من خلال هذا - وعن غير عمد - إلى موضوعات دينية . ولكن الأعمال التى تتصل بالدين - أيًا كان هذا الدين - أعمال محدودة ، وأقل عددًا منها تلك الأعمال التى تدخل فى صميم الدين أكثر مما توضح الطريقة التى يمكن للدين أن يؤثر بها فى العلاقات الإنسانية ، وهى من أجل هذه الندرة تستحق الذكر ، ونسبة الأعمال الأدبية التى تنبنى على الدين فى الأدب المصرى الحديث نسبة لا تعدو أكثر مما يمكن أن نجده فى أدب أى أمة غربية حديثة ، ولكنها على التأكيد أقل من الأدب الشعبى المصرى ، حيث الحكايات المستقاة من قصص القرآن والأساطير والقصص المنسوجة حول الرسول (عليه

السلام) والصحابة والأولياء مازال لها قصب السبق .

وقد وجدت الطريق إلى النشر تلك الأعمالُ التى استلهمت الشعور الدينى رأسًا ووُضعت لتلهب الحماس الدينى ؛ ويتبادر إلى الذهن ما كتبه أحمد الشرباصى تحت عنوان « مسرحيات إسلامية »[٨] . ولكن تلك المسرحيات ليست من نتاج مؤلف ذى منزلة أصلا فى عالم الأدب ، فقد كتبها لجمعية الشبان المسلمين التى كان رائدها العام ، وكان القصد من ورائها أن تمثل فى احتفالات الجمعية ، ولم تكن تلك المسرحيات فى معظمها سوى أعمال درامية متواضعة لبعض الأخبار الواردة فى المصادر القديمة ، لا يخفى ما تنطوى عليه من غاية إرشادية ، إلى حد أن إحداها وهى بعنوان (درس الصدق) تقدم لنا معلّمًا فى فصله يدير المناقشة حول الصدق والكذب ، وهى ترجمة بتصرف Free Translation من الإنجليزية[٥] . ويجدر بنا أن ننوه أنه لنقل هذه الرسالة حتى فى هذا المجال ، تُمزج الحماسة الدينية بحب الوطن ، حيث يصور المشتركون فى الجهاد على أنهم يقاتلون فى سبيل اللّه والوطن ، وبأن اللّه يحفظ المجاهدين فى ذهابهم ورواحهم ، ويعز كلمة الإسلام والأوطان بشجاعتهم[٩] .

ومن الأهمية بمكان أن أذكر أن زميلى وصديقى د. مصطفى بدوى قام بدراسة الأعمال الأدبية ذات الصلة بالموضوعات الإسلامية خاصة فى مقال له

---

(٥) يقصد المؤلف أنها مسروقة ، ولكنه لم يحدد المرجع الذى أخذت منه فكرة هذه المسرحية، وإن كنا نزعم أن مثل هذه الأفكار الإرشادية قد توجد بكثرة فى مصادر عربية قديمة مثل : **كليلة ودمنة** لابن المقفع **وألف ليلة وليلة** .. وغيرها من المصادر . (المترجم) .

بهذه المجلة ، والمقصود من دراستى أن تكون قراءتها مقترنة بقراءة مقاله ، وإلا أعطيت انطباعا زائفا غير مقبول بأن أدباء العرب المحدثين اختصوا المسيحية واليهودية بتأويل أشد جرأة من هذا الذى يقدم لدين الأغلبية[٥٥] . والحق أن ملاحظات الدكتور بدوى تبدو متلاحمة النسج مع ملاحظاتى ، فهو يركز بصفة خاصة على ما أسماه تناول الجانب البشرى أو الإنسانى فى شخص الرسول محمد (عليه السلام) ، وتخليده على أساس أنه قائد إنسانى وقدوة تحتذى أكثر من كونه متلقيًا وداعيًا لرسالة سماوية ، أو بعبارة أخرى « النبى بطلا » إذا أتيح لى أن أوظف العنوان الذائع فى المسرح اليونانى « أوديب ملكًا » .

ولا يمكن لأحد أن يتوقع بالطبع كثيرا من الأدباء المسلمين وهم يتناولون قضايا مسيحية ، خاصة إذا أخذنا فى الحسبان أن الإسلام - كما كان فى الماضى - يظهر قليلا من الاهتمام نحو الديانات الأخرى . ولكن يجدر التنويه بأن المحدثين من الأدباء المسلمين ، حين يقتربون من موضوعات ذات حساسية عند المسيحيين ، يفعلون ذلك بروح أبعد ما تكون عن اللدد والخصومة .

وحقيقة هناك قصة قصيرة مسلية[١٠] لتوفيق الحكيم (١٨٩٨ - ١٩٨٧) وبطلها السيئ الحظ راهب مسيحى استدعى إلى بيت امرأة محتضرة ليباركها ، ولم تمض فترة من مساعدته لها حتى تظهر لنا وقد شفيت ، وتقام له الولائم

---

(٥٥) ترجم هذه الدراسة الدكتور عبد الواحد علام ونشرها فى كتاب بعنوان **دعوة إلى شعر العقاد ومقالات أخر** (القاهرة ١٩٩١) ، ص ١٧٧ - ٢١٦ .

والاحتفالات لعدة أيام، ثم يدعى إلى زيارة مريض وزيارة مريض آخر، والنتيجة دائما ناجحة حتى إنه نفسه يؤمن بقدرته الخارقة. ولكن - واحسرتاه - حين يعود إلى ديره يجد إخوانه فى هلع على مصيره مما نقل إليهم عن نبأ اختطافه، ومساومتهم على دفع فدية كبيرة لتأمين عودته. ومع ذلك فإن النكتة طريفة ومن السهل أن نصدق أنها قيلت على حساب راهب مسيحى لأنها لا يمكن أن توضع فى إطار إسلامى، وعلى الرغم من ذلك فإن إسلام العوام لا يخلو من بعض تجار المعجزات الذين لا ينتسبون إلى عشيرة يمكن أن تحتجز لدفع الفدية.

وسوف نتعرض فى هذا المقام لعمل جوهرى وهو رواية محمد كامل حسين **قرية ظالمة**[١١] التى ترجمها كينيث كراج Kenneth Cragg تحت اسم City of Wrong[١٢] وقد بنيت هذه الرواية حول الحكم الذى صدر على المسيح، حيث تبين أولا كيف أن كبار الشخصيات اليهودية، سواء منها ما صدر عن جهل أو عن غير اكتراث بالأمور الأخلاقية، ساعدت على التوصل إلى قرار يعلمون أنه قرار أثيم، متصورين أن الإحساس بالمسئولية الفردية يضيع فى العمل المشترك، ثم تتناول الرواية بعد ذلك استجابة بعض أتباع المسيح لشخصيته وتعاليمه، وموقف الرومان، ورد فعل الحواريين تجاه القبض على المسيح وإدانته.

والمدار الذى تدور عليه الرواية بالطبع، مدار إسلامى ومسيحى معًا، فالعنوان قرآنى، ومناسب جدًّا مادام من بين القضايا الهامة المطروحة قضية

المسئولية الجماعية فى مواجهة المسئولية الفردية . ولكن الرواية تصمت عامدة عن نقطتين محددتين ، تفترق عندهما تعاليم الإسلام عن المسيحية ، وهما : ألوهية المسيح ، وحقيقة الصلب . فعلت هذا فى غير عنف ، حيث حققت أهدافها بمقدرة فى القرار الذى اتخذ بصلب المسيح ، بل يجدر التنويه بأنها لا تتخذ موقف الإسلام بغية التسليم به أو إثباته بلا مسوغ . أما حقيقة أن بعض الشخصيات والأحداث مأخوذة من المصادر المسيحية ، فلاريب أنها سيقت بطريقة لا تخالف التعاليم الإسلامية المعهودة .

ومهما يكن من شىء فإن المؤلف يقدم توصيفًا مميزًا للمسيحية ، ويرمز إليه فى الرواية مجرد رمز حين يصور الحواريين وقد اعتراهم الغم وتأنيب الضمير على فشلهم فى إنقاذ المسيح ، على الرغم مما قيل عن التعليمات الصادرة إليهم من « سيدهم » بعدم التدخل . ويتضح هذا الأمر كثيرا فى تذييل الترجمة الإنجليزية (ص ٢٢٣- ص ٢٢٥) وفيه يبين الدكتور محمد كامل حسين أنه استهل عمله بفكرة فرويد فى **موسى وعقيدة التوحيد Moses and Monotheis** القائلة بأن « الأمم والأجناس والجماعات الدينية والثقافية يمكن أن تكون عرضة للعقد النفسية (بالمعنى الحسن للكلمة) كالأفراد سواء بسواء ، ومضى المؤلف بعد ذلك ليأخذ فى الاعتبار كيف أن كل دين من الأديان السامية الكبرى ربما تأثر تأثرًا مزمنًا بألم نفسى أو صدمة شعورية حدثت فى فترة مبكرة من تاريخه ، وخلص إلى أن الحدث الهام فى اليهودية كان الخروج - « فرار اليهود بمعجزة لا تساويها معجزة من الإبادة الحتمية المطبقة » - والنتيجة

أن «القنوط الشامل والرجاء المتصل موجودان جنبا إلى جنب فى وجدان اليهود». وكانت التجربة المناظرة فى حالة الديانة المسيحية هى جمود الحواريين عن الحركة فى لحظة مفجعة بإطاعتهم لتعليمات لم يفهموها حق الفهم فى حينها؛ ومن ثم فإن المؤلف يرى أن تأثيرات هذه التجربة ربما توارثها المسيحيون بحيث ترى «المسيحى الخالص مغتمًا فى أقصى لحظات الصفاء». وبالمقارنة (مع الإسلام) تتضح أسباب وقوف المسلمين الأول إلى جانب الرسول (عليه السلام) فى غزوة بدر التى فرضت نفسها على الإسلام.

هل يحتاج المرء أن يضيف أن هذا العمل برمته ليس، ولا يمكن أن يتوقع أن يكون، مقنعًا تمامًا للمسيحى، أو بالتأكيد للمؤمن بأية عقيدة أخرى؟ وكما لاحظ كراج Cragg فى ترجمته (ص ١١) أن العمل يتناول «التاريخ المسيحى فى جانبه الإنسانى» فحسب، أضيف على هذا أن كل معالجته قائمة على أساس إنسانى عام، فكثير من هذا النوع من القصص يمكن أن يقال، وبإثارة نفس القضايا الرئيسية عن محاكمة سقراط مثلا. ومن المهم لدارس عصر النهضة الحديثة فى مصر Egyptian Modernism أن يعرف أن هذا الكتاب يحيط بالشكوك قدرة «العقل» بوصفه حكمًا لا يرقى إليه الشك على الفعل الإنسانى، وكل ما يجيب عنه الكتاب أنه وضع «الضمير» فى مرتبة المراقب على «العقل». أما طبيعة هذا الضمير فقد أسدل عليها عمدًا ستار من الغموض فى الرواية، ولكن المترجم يرى أن المؤلف قد رأى هذه الطبيعة (ص ٢٢١-ص ٢٢٢) على أنها قانون طبيعى موجود فى النفس «أرقى قانون عرفه

الإنسان » . ولأمر ما صورت مريم المجدلية فى الرواية على أنها امرأة تعطى جسدها للجميع حتى تعوض حقيقة ما صنعته مرة حين أثارت العواطف التى أدت إلى سفك الدماء ؛ إنها منذ البداية امرأة قد منحت ضميرا حيا أسيئ استخدامه ، ولقاؤها بالمسيح أعاد هذا الضمير إلى جادة الصواب . وليس من شك هنا فى ميلادها الجديد أو فى انسكاب القدرة من منبع وراء الطبيعة .

وهناك مسرحية من فصل واحد لفتحى رضوان (١٩١١- ١٩٨٨م) باسم **إله رغم أنفه**[١٣] تدور حول زعيم سياسى معبود عند شعبه ، يحاول إزالة كل تماثيله المقامة فى المعبد ، ولكن يمنعه الرهبان فيدخل معهم فى مناقشة طويلة . وعبثا يحاول أن يثبت لهم أنه بشر ، وأن عبادته على هذا النحو مؤامرة حاكها أعداؤه لزحزحته عن ميدان السياسة ، وعبثًا يحاول حتى الطعن فى رجال الدين بوصفهم منافقين لم يقدموا للفقراء شيئا يستحق الذكر . وكلما قال الزعيم أو فعل شيئا لم يزدهم ذلك إلا إصرارا على عبادته وحين يحاول الهرب فى النهاية ، يجد نفسه وقد أحاطت به حشود الناس الذين أتوا لعبادته .

ويمكن للمرء أن يطلق لخياله العنان ليرى فى هذا العمل هجومًا إسلاميًا مقنعًا على المسيحية ، وفى المسرحية ذاتها ملمح أو اثنان يحملان ، فى غير وضوح ، قرائن مسيحية : فالرهبان يشيرون إلى البطل لا على أنه إله خالص ، ولكن على أنه إله حلَّ فى إنسان ، وهكذا يكون التواضع والخضوع ، كما يقال ، من بين خصائصه ، بل أكثر من هذا ينهون جدالهم معه بأنهم وهبوا الفقراء منحة الإيمان « سلاح الضعفاء الذى سيرثون به الأرض وما عليها » وفى

هذا ترديد لما جاء بـ« موعظة الجبل » والقرآن الكريم (١٩: ٤٠)[٥] ويشير بالتحديد إلى المسيح . ومع ذلك نطالع فى تمهيد المسرحية أنها استلهمت خبرا صحفيا عن رئيس وزراء « دولة من دول الشرق الأقصى » كان معبودًا من شعبه ، حتى إنه أمر رجال الشرطة بتحطيم كل التماثيل المقامة تخليدًا له فى أى مكان[١٤] . ويكشف المؤلف عن شخصية رئيس الوزراء هذا على أنه نهرو . فهل يمكن أن يظل مثار جدل أن المؤلف ساوى ، بغير وعى منه ، الآراء المسيحية بعقيدة غير صحيحة هى الهندوسية ؟ حتى هذا يبدو بعيد الاحتمال ، لأن فتحى رضوان كان أكثر الأدباء المسلمين المحدثين تعاطفًا مع الطرائق المسيحية فى التفكير .

ويحدثنا المؤلف نفسه[١٥] عن مطالعاته الكثيرة فى الأناجيل ، ويكشف عن تعلقه بمثاليات الحب وعدم استخدام القوة ، مع أن التأثير الأول والغالب عليه فى هذا الصدد هو تأثير تولستوى . فيبدأ كتابه المهم غير الروائى عن الحرب والسلام[١٦] بفصلين عن الدور الذى تلعبه الديانات الكبرى فى كبح جماح الغضب والعدوان ، وتتبوأ المسيحية مكانة مرموقة فى مجال عرضه . ويفتتح الكتاب باقتباسات كثيرة من « موعظة الجبل » ، وتقدم تعاليم المسيح بوصفها تعاليم سامية وعملية فى آن واحد ، كما أنه يجعل قولة المسيح « أحب أعداءك »

---

(٥) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ إنا نحنُ نَرِثُ الأرضَ ومَنْ عليها وإلينا يرجعون ﴾ (من سورة مريم) .
ولا أدرى صلة هذه الآية بموضوع المسرحية المذكورة ، إلا أن يكون تأثيرها على المؤلف مجرد تأثير أسلوبى فحسب ، لأن الضمائر فى الآية تعود إلى رب العزة سبحانه . (المترجم) .

المحكّ الذى يعرض عليه كل شيء. وبالقياس إلى المسيحية تأتى معالجته لليهودية مرتجلة ومبتسرة، ومعالجته للإسلام (ص ٣٢/٥٦) تبريرًا مكشوفًا، فى محاولة المؤلف الجريئة لإثارة قضية لجوء الإسلام إلى السيف وفى كون ذلك عدم انتكاس عن تعاليم المسيحية.

وكتب فتحى رضوان مسرحية طويلة كاملة سماها **دموع إبليس**[١٧] حيث يتخذ فيها إبليس هيئة بشرية ليغوى امرأة شابة ذات عفاف. وبدلا من هذا يقع فى غرامها، ويجمع أمره على اغتصابها، ومن ثم تحمل منه وتنجب له ابنًا قبل أن تغرق نفسها. ويكبر الابن ليصير فتى قديسًا، ويقع إبليس فى الحيرة بين مهمته فى إذاعة الفساد وعاطفة الأبوة. وتحت وطأة الشياطين الآخرين يسمح فى النهاية لأحد معاونيه (الذى يمثل الحقد) بأن يدبّر اغتيال الشاب. وتنتهى المسرحية بتعليق الأمل، فالبذور التى بذرها الشاب الضحية آخذة فى الإنبات، على حين يرى إبليس نفسه، للمرة الأولى والأخيرة كما تعهد هو بذلك، يذرف دموع الحزن.

والمسرحية فى مجموعها ترنيمة مدح فى مقدرة الحب على التغيير، حتى لو أفضى إلى المعاناة، وفى اكتمال الإنسان من خلال تجربة الحب. إن هناك تزاوجا بين هذه الفكرة وبين المثالية المسيحية، إن لم تكن بين نص مسيحى بذاته لم يغب عن ملاحظة المؤلف. وحين أخرجت المسرحية أفادت من الإشارات المسيحية بعض الإفادة، مع أن المؤلف نفسه عزا ذلك إلى تصرف المخرج، وأنكر أنه كان مستلهمًا المسيحية عن وعى[١٨].

لو وسعنا الآن نظرتنا لتشمل اليهودية مع المسيحية، سوف نجد مسرحية ليس من السهل إدراجها فى الإطار العام للتفكير الحديث، وهى مسرحية **محمد** لتوفيق الحكيم[١٩]. إن فيها مشاهد يظهر فيها نصارى ويهود. ففى مشهد يظهر النجاشى ملك الحبشة على اتفاق تام مع التعاليم الإسلامية، حتى ما يتصل منها بعيسى (ص ١٢٧)، ثم إن النجاشى يعلن فى النهاية أن محمدًا ﷺ هو النبى الأمى الذى ينتظره أهل الكتاب، وأن «بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل» (ص ٤٠٤). وفى موضع آخر يظهر النصارى واليهود وهم يتخاصمون أمام محمد ﷺ، فيزعم اليهود أن اللّه (سبحانه) لم يرسل نبيًا بعد موسى، ويجيب النصارى بإنكار موسى والتوراة (ص ٢٠٥). ومن ناحية أخرى ليست هناك محاولة لتخفيف الحكم القاسى الذى صدر على بنى قريظة، أو تفسيره، أو تبرير موافقة محمد ﷺ عليه، ويظهر يهودى بعد ذلك ماضيًا إلى حتفه بكرامة وشجاعة (ص ٣٥٨-٣٦٠). وفى النهاية حين تحضر امرأة يهودية متهمة بمحاولة دس السم للنبى ﷺ وتقف أمامه، تكون محاكمتها قصيرة (ص ٤٠٠):

«**محمـــد (للمرأة)**: ما حملك على ما صنعت؟»

اليهوديـــــــة: إنك نلت من قومى ما نلت. قتلت أبى وعمى وزوجى، فقلت إن كان نبيًا لم يضره، وإن كان كاذبًا أرحت الناس منه.

محمد (لمن حوله): اقتلوا هذه المرأة».

وليس هناك تعاطف معلن من جانب المؤلف ، أو وجهة نظر ثابتة أو عصرية على الأرجح ، بل يبقى أن جملة المسرحية ، بتتابعها اللاهث فيما لا يزيد عن خمسة وتسعين مشهدًا قصيرًا مشتقًّا من المصادر القديمة[٢٠] ، لا تشمل أية رسالة عن الحاضر . إنها تنتمى إلى الثلاثينيات ، حين حول المحدثون فى بادئ الأمر انتباههم إلى الموضوعات الدينية ، وفيها يكتفى توفيق الحكيم ، الذى أُعطى قدرًا كبيرًا من الخبرة ، باستغلال الوسائل المسرحية فى إضفاء الحركة على المادة المشحونة بالعاطفة .

ولقد اختص اليهود فى موضع آخر بمعالجة أقل تعاطفًا أو مراعاة من التى كانت من نصيب المسيحيين ، وليس من الصعب تبين أسباب ذلك : فابتداء لا توجد أقلية يهودية من أهل البلاد تشكل جزءا من الحياة اليومية يمكن مقارنته بالأقباط . بل أكثر من هذا فعالية أنه كلما طال أمد الصراع مع الصهيونية ، انصرفت الميول السياسية إلى شحذ الحزازات القديمة .

وثمة تفرقة واضحة بين مودة المسيحيين للإسلام وعداوة اليهود له ، وقد بينها القرآن الكريم كما فى (الآية رقم ٨٢ من سورة المائدة)[*] ، وأخذها أحمد الشرباصى فى مسرحيته **مولد الهدى** حيث يقال إن قسيسًا مسيحيًّا ذهب إلى عبد المطلب بعد مولد محمد ﷺ مباشرة ليطلع الشيخ على مصير الطفل ويحذره من نوايا اليهود ، ولكن لم يستغرق هذا طويلا حتى تكشف الدافع

(*) يقصد المؤلف الآية الكريمة : ﴿ لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود .. الآية ﴾ وقد أشار إليها خطأً على أنها (٥:٨٥) والصحيح ما أثبتناه . (المترجم) .

السياسى فى طوايا مشهد من القرن السادس الميلادى اختلطت فيه حوادث التاريخ اختلاطًا ، حيث نقرأ فقرة من الحوار (ص ٦٤) :

عبد المسيح : دعنى أكرر القول يا سيدى : أنه يجب أن تحذر اليهود على هذا المولود ، فهو صاحب اليوم الموعود .

عبد المطلب : هؤلاء القوم هم مصدر شر للعالم ، ولن يجدوا لهم نصيرا عندما تتكشف نواياهم الخبيثة .

عبد المسيح : لقد تنكروا قديما لنبيهم ، ولم يقنعوا بما جاءهم به من الخبرات . هذا ديدنهم ، يعملون الشر حبًا فى الشر ، حتى لو تعارضت دنياهم التى يخافون أن تزول مع شرهم هذا فإنهم يطلبون سواها .

عبد المطلب : لكن ما الذى يدعوهم إلى معاداة مولودى ولم ينلهم منه شر ؟

عبد المسيح : إنهم يريدون أن يسيطروا على العالم من طريق الغش والخداع ..»

ليس هذا إلا استطرادًا فى مسرحية حملت عنوانًا خاصًا وسمة معينة : « مسرحيات إسلامية » . ويستطيع المرء أن يضرب عديدًا من الأمثلة على مسرحيات وروايات من هذا النوع تنطق بإدانة عريضة لليهود على جشعهم وخيانتهم ، وتظهر فيها الشخصيات المسيحية فى ضوء محبب من التصوير[٢١] ، ولكن هذه الأعمال غالبًا ما تكون لمؤلفين ليس لهم حظ عظيم من الشهرة الأدبية . أما الأديب المبرز الذى شن حملة ثابتة ومركزة على اليهود فهو على

أحمد باكثير (١٩١٠- ١٩٦٩) وهو من هذه الناحية كاتب منقطع النظير. وربما كان من الواجب أن نشير إلى أنه ليس مصرى المولد أو مصريا خالصًا فى تكوينه الثقافى، فقد ولد فى أندونيسيا لأبوين عربيين وقضى سنوات عمره الأولى فى حضرموت والحجاز، ولم يستقر فى مصر إلا وقد بلغ الثالثة والعشرين من عمره، ومع هذا فقد أصاب نجاحًا فى مصر بكتاباته، ونال عددًا من جوائز الدولة فى الأدب، ولذا فلابد أنه كان فى مصر إجماع يتفق مع آرائه، على الرغم من أن شعبيته قد تراجعت فى السنوات الأخيرة من عمره مما اضطره إلى أن ينفى عن نفسه ما أشيع عن صلته الوثيقة بالإخوان المسلمين، تلك الصلة التى عرضته لبعض الأخطار.

وقد نشر فى عام ١٩٤٥ مسرحية تسمى **شيلوك الجديد** وفيها يحذر من قيام دولة يهودية فى فلسطين، ويحث على فرض حصار اقتصادى عليها. وكتب بعد ذلك مسرحية **شعب الله المختار** التى يكشف فيها عن قوى التحلل والانهيار الكامنة فى أساس الدولة الصهيونية الجديدة. وكلتا هاتين المسرحيتين يمكن أن تكون معادية للصهيونية أكثر من كونها معادية لليهود. ولكن هناك مسرحية ثالثة بعنوان **إله إسرائيل**[٢٢] يدين فيها بوضوح اليهود كل اليهود أصلا وفرعا. وإله إسرائيل مسرحية من ثلاثة فصول، أو ثلاث مسرحيات فى مسرحية واحدة.

الفصل الأول منها بعنوان « الخروج » وفيه يتخذ بنو إسرائيل، حين كانوا بمصر، إبليس إلهًا لهم، والذهب رمزه على الأرض. ومن ثم تتوالى من هذا

الحلف غير المقدس كل الشدائد التى تمرس بها موسى فى قيادته لبنى إسرائيل : كامتناعهم عن إعادة الحلى الذهبية التى سرقوها من جيرانهم المصريين ، وصنعهم العجل وعبادته . ويعنفهم موسى بكل الغضب والحدة ويزجرهم على أكثر إساءاتهم فسادًا . ولكن بعد أن ترك موسى جيلا كاملا يتيه فى الأرض وبعد أن أصبح فى نهاية الأمر على مشارف البصر من أريحا مترقبًا نتيجة المعركة ، يظهر إبليس ليقول له : إن الإسرائيليين موالون له (أى إبليس) على طول الخط ، ويضيف أنهم انتصروا فى المعركة ولكن من غير قتال عادل ، وإنما من طريق نشر الرعب بقتل النساء والأطفال والشيوخ العاجزين . وحين يتأكد موسى من صحة هذا يتبرأ من بنى إسرائيل ويستمطر عليهم لعنة الرب إلى يوم الدين .

يتعلق الفصل الثانى أو المسرحية القصيرة الثانية وهو بعنوان « ملكوت السماء » بمؤامرة اليهود ضد المسيح ، وعلى الرغم من عدم وجود هجوم موجه إلى المسيحية فى هذا الصدد ، فإن المشاعر المسيحية لم تكن بمنأى عن التجريح ، إذ سمح المؤلف لنفسه ببعض التصرف فى تفسير الوثائق المسيحية بدون الخروج عن الإطار العام لرأى الإسلام المعروف فى مسألة الصلب .

يحدث يوحنا المعمدان إبليس بأنه يهيئ الطريق لظهور المسيح « وهو رسول عظيم كموسى » وإبليس لا يصدق هذا ، لأنه قد أفسد أصلاب بنى إسرائيل فلن يظهر من بينها نبى أبدا ، ولكن تتزعزع ثقته حين يعرف أن عيسى قد ولدته عذراء ، ومن ثم يتحتم على إبليس أن يعتمد على اليهود فى تدبير قتل المسيح ،

مادامت قد فشلت محاولة إبليس إغواءه فى البرية ، ورأى بنفسه عدم استجابته للفساد . ويقرر « قيافا » (رئيس الكهنة) وحموه « حنانيا » أنهم لا يستطيعون أن يقدموا إلى المحاكمة رجلًا بتهمة أنه يسمى نفسه ابن اللّه ، إذ يجوز تكون مجازًا يطلق على الجميع باعتبار أن اللّه مصدر الخلق . ويحاولان عوضًا عن ذلك ، الوصول إلى المسيح عن طريق مريم المجدلية التى تحبه ، ولكنها ترفض الاشتراك معهم . فلما سمعت نبأ القبض على المسيح نذرت أن تعطى جسدها لأى حارس رومانى يسهل له الهروب . وحين تحققت من أن السجين هو يهودا (الأسخريوطى) شبيه المسيح ، تركته لمصيره زائغ البصر . وينعقد لسان يهودا أثناء المحاكمة ولا يستطيع الدفاع عن نفسه ، وبينما هو ماض إلى الصلب يتضرع إلى إبليس بهذه الكلمات « إلهى إلهى لم تركتنى » . غير أن إبليس لا يبدى أدنى محاولة لإنقاذه حيث يكفى لتحقيق غرضه أن اليهود أدانوا شخصا ما معتقدين أنه المسيح . وعند هذا الحد يسمع صوت المسيح وهو يقول إن بنى إسرائيل قد ضلّوا ، ولسوف تأتى على أعقابهم أمم مؤمنة ؛ ومادام إبليس الآن قد أفسد أرحام نساء بنى إسرائيل كما أفسد أصلاب الرجال من قبل فلسوف يظهر الرسول القادم من بين الأميين .

ويأتى الجزء الثالث من هذه المسرحية أو الثلاثية بعنوان « الحية » حيث يبدأ باجتماع فى جهنم ، وترى على صدر المسرح خريطة للعالم سنة ١٨٩٧م التفت حول أقطاره حية رقطاء ، ورأسها يتحفز للوثوب على فلسطين ، إذ إن المناسبة هى انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول .

ويظهر أعضاء المؤتمر بطريقة تدعو للسخرية (مع بعض الاستشهادات المألوفة من مأثور التاريخ، واقتباسات من الإنجيل والتوراة) - يظهرون وهم يخططون لاستكمال سيطرتهم على العالم عن طريق الاستيلاء على هذه القطعة المحدودة من الأرض، غير عابئين بمشاعر العرب الذين كانوا أكثر كرما لليهود من كل شعوب الدنيا، وغير مبالين إن ساقوا العالم بأسره إلى حرب سوف يخوضها غير اليهود. ويراقب إبليس تنفيذ الخطة بإعجاب، إلا أنه يضطرب هونا عند سماعه عن مولد الجمهورية العربية المتحدة، بل إنه ليدخل فى شجار مع مساعديه من الشياطين لأنه وجدهم أقل من اليهود حماسة وتأثيرًا فيما يأتونه من أفعال. ولكنه فى غمرة الفزع يكتشف أن اليهود الذين اتخذوا وظيفته ولعبوا دوره فى بث الفساد انقلبوا عليه منكرين وجوده؛ ولذا فإنه يغرى شياطينه، ذكورًا وإناثًا، أن يتلبسوا اليهود بقصد توليد جنس مُولَّد يكون أقل رتبة من اليهود وأعلى رتبة من الشياطين، وسيظل معدن إبليس نفسه خالصًا، ومن ثم راقيًا. ولابد ألا يعرف اليهود أنهم لم يعودوا من جنس البشر، لأنهم قد تأخذهم العزة بالإثم ولا يجد بنو البشر أمام تطاول اليهود، بدًا من استئصالهم كما تستأصل الجراثيم حينما تظهر أعراضها الفتاكة.

وحين يتأهب إبليس للابتهاج بنصره المرتقب، يُسمع صوتا المسيح ومحمد ﷺ حيث يردد المسيح ما جاء فى سفر لوقا ٣٠: ٢٨- ٣٣: «يا بنات أورشليم، لا تبكين علىَّ، وعلى أنفسكن وأولادكن فابكين. أيام يقولون طوبى للعواقر، والبطون التى لم تلد، والثدى التى لم ترضع»، ويردد محمد ﷺ الآية القرآنية (٦٤: ٥): ﴿وألقينا بينهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة﴾

كُلمَّا أوْقَدوا نارًا للحرب أطفأها اللَّهُ ويَسْعَوْن فى الأرض فسادا واللَّه لا يُحبُّ المفْسِدين﴾[٥] وهكذا يسوق جبريل ما يؤكد خلود كلام اللَّه عز وجل، على الرغم من وفاة المسيح ومحمد ﷺ منذ زمن بعيد.

وتتضح فى هذا الجزء أهمية المغزى السياسى، ولا نقول تقدمه على الدافع الدينى، إذ نرى إبليس جملة بيدى انزعاجه من الطريقة التى تسلكها الجمهورية العربية المتحدة فى إفساد مخططاته. يقول أحد أتباعه (ص ١٧٤- ١٧٥):

- لقد كان إلى عهد قريب شوكًا يابسًا يمكن قطعه وإلقاؤه فى النار فانظر ماذا جعله يخضر من جديد.

- ماذا جعله يخضر من جديد؟

- أخشى أن تغضب إن أجبتك.

- بل أجب ويلك ماذا جعله يخضر؟

- الدولة التى أقمتها لشعبك المختار وسط هذا الشوك.

- كلا بل كل هذا من مصر.

- مصر ذاتها كانت شوكًا يابسًا فما الذى أعاد إليها الحياة؟

---

(٥) نقل المؤلف ترجمة الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ اللّه عليكم إذْ هَمَّ قومٌ أن يَبسُطوا إليكم أيديَهم فكفَّ أيديَهم عنكم واتقوا اللّه وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون﴾ وهى الآية ١١ من سورة المائدة - على أنها ما ضمنه على أحمد باكثير عناصر الحوار، وذكر أنها آية (٥:١٤) وهذا غير صحيح وبالرجوع إلى نص المسرحية وجدنا أن الآية التى ساقها باكثير هى الآية ٦٤ من سورة المائدة (المترجم).

- ذلك الكتاب البغيض الذى جاء به محمد .

- هذا الكتاب قد ظل زمنًا كالبركان الخامد حتى أقمت هذه الدولة فى أرضه فانبعث وثار .

أما العمل الوحيد الذى طرح رؤية شاملة للديانات السامية الثلاث فهو العمل ذو الشهرة المدويّة **أولاد حارتنا** لنجيب محفوظ[٢٣] . ففيه يصور اللّه عز وجل على أنه شخصيّة مهيبة متقدمة فى السن من أصل غير معروف ويسمى « الجبلاوى » ، وتشكل أملاكه التى وقفها على ذريته حارة فى أحد أحياء القاهرة . وعقب عدة محاولات مع أبنائه مشابهة لعصيان إبليس وهبوط آدم ، يطوى الرجل نفسه فى عزلة فريدة ، فلا يظهر بنفسه ولا يكاد يبدى أى تدخل فى شئون الوقف أو حتى فيما يدره من إيراد ، فى الوقت الذى يقوم ناظر الوقف - ويمثل السياسى - بتسيير شئونه من أجل مصالحه الخاصة بمساعدة عدد من فتوات الناحية . وحين تصبح الحياة غير محتملة يثور على المظالم رجل يدعى « جبل » ويرمز إلى موسى (عليه السلام) ، حيث تسود أحكام العدل القائم على القوة ، التى وضعها ليختص بها ذويه فحسب . ولم يمض وقت طويل حتى تدهورت الأمور مرة أخرى وبرز ثائر آخر هو « رفاعة » ويرمز إلى عيسى (عليه السلام) ، الذى كانت رقته وحلاوة شمائله وحبه السامى تشكل تهديدا للمستغلين الذين قضوا عليه ، حيث نهض بدعوته آخرون ، ولكنهم خلطوا بين طريقته فى الدعوة واستعمالهم القوة ، وتم لهم فى نهاية الأمر تكوين جماعة مستقلة . وينتشر الفساد مرة أخرى ويظهر مصلح جديد هو « قاسم » أو

محمد (عليه السلام)، الذى يجمع بين رسالتى سلفيه.

ولم يكن الإصلاح الذى حدث حتى الآن ليدوم، فقد كان المنقذ المتوقع هو الساحر «عرفة» - وهو يرمز بوضوح إلى العالِم Scientist الذى دفعه فضوله إلى التسلل إلى البيت الكبير الذى يعيش فيه «الجبلاوى» ليحاول بنفسه الاطلاع على محتوى شروط الوقف. ويقتل خادمًا عجوزًا باغته ثم يهرب، لنسمع بعد قليل أن «الجبلاوى» نفسه، وقد حدثت هذه المأساة فى عالمه، قد مات.

ويحتاج الساحر إلى القوة إذا كان يريد الخير لأبناء حارته، فنراه يحرز انتصارًا سهلًا على فتوات الحارة الذين كان لهم من العضلات أكثر مما كان لهم من العقل. ولكنه يقع فى خطأ التحالف مع ناظر الوقف «قدرى» ويضطر إلى أن يساوم، ويفقد شعبيته، ومن ثم يقتله حليفه المزيف. وكان لديه مساعد هو «حنش» يحوز كراسة مشروعاته، ومن ثم يكون معقد الآمال فى تحقيق برنامج عرفة. وشاع بين الناس ما كان «عرفة» ينتويه، ولذا فإن سيرته بينهم تعلو على سير «جبل» و«رفاعة» و«قاسم»، حتى لو كان هو المسئول عن موت «الجبلاوى».

هناك كثير من التفاصيل فى الرواية تصدم وجدان المؤمن مثل «ما يشيع» بين الناس من أن «الجبلاوى» نفسه ربما كان بلطجيًا وفتوة، أو تلك «النظرة الباردة القاسية» التى قيل إنه ألقاها على آدم (أدهم) (ص ٤٧)، ومثل ما صور به عيسى (رفاعة) بأنه لم يكن يفر خوفًا من تحرش أعدائه أو مؤثرا

التضحية بنفسه ، وإنما صور وقد أمسك به وقتل لمجرد أنه حاول الهرب . ولكن بالقياس إلى الإشارات المجازية الواسعة ، سوف نجد فى الرواية بعض الاعتبارات القليلة التى ترى أن الدين فى أساسه ، وربما بمفرده ، نظام من المواضعات التى استحدثت لتصل إلى غايات اجتماعية مرجوة ؛ وعلى هذا فليس الدين هو النظام الوحيد المحتمل ، حيث يمكن - حينئذ الاستغناء عنه أو يمكن - على التأكيد - استبدال نظام آخر به . فالرواية كلها يمكن أن ينظر إليها على أنها خلاصة ما ورد على لسان أحد أبطال **الثلاثية** الذى كان يدافع عن سلامة موسى (١٨٨٧- ١٩٥٨) : « ينبغى أن نذكر أن لكل عصر أنبياءه ، وأن أنبياء هذا العصر هم العلماء »[٢٤] .

وهكذا نجد قلة معدودة جرأت على تقرير الحالة فى مصر ، ومع ذلك يبقى بين المصريين المعاصرين ، وفيهم كثير ممن لا يمكن أن يُعدوا خارجين على الدين ، يبقى أن الادعاء شائع ومألوف بأن الدين - حين لا يكون مجرد تجربة أو ممارسة انفعالية تورط فيها الفرد من غير إضرار - هو على أحسن الفروض ، الداعى إلى خير المجتمع . ولذا فإن أمين الخولى (١٨٩٦- ١٩٦٦) تحدث فى الندوة التى ناقشت علاقة المسلمين بالأقباط[٢٥] حديث الخبير بالأمور ، مستشهدا بما كان يجرى فى قريته ، حيث كانت القرية تحتفل بالمناسبات الدينية ويشارك فى الاحتفال المسلمون والمسيحيون على السواء ، مثل جعل مولد الرسول - وهو اليتيم العظيم - عيدًا لليتيم (ليكون مادة للترفيه عن يتامى القرية فيكتسى بها صغارهم من المسلمين والمسيحيين) ويوم ميلاد المسيح - وهو الداعى الأعظم للسلام - مناسبة لفحص الخصومات وإحلال الوئام محل

الشقاق بين جميع أهل القرية مسلمين وأقباطًا[٥] . وكان المبدأ العام الذى ارتكن إليه الشيخ أمين الخولى هو أنه - بتقدم المعرفة - سوف يكتسب الإنسان أفقًا أوسع ، وحينئذ يمكن أن يترك الجانب الاعتقادى المحض ليكون بين العبد وربه ، فيزول بذلك أكثر ما بين الأديان والمذاهب المختلفة من تخالف وتباغض ، وتنصرف كل الطاقات إلى إصلاح المجتمع .

وحقيقة أن روايات نجيب محفوظ الأخيرة تنم عن شعور عميق بالقلق الروحى وعن رغبة فى البحث من جديد ، لاعن اللّه على وجه التحديد بل عن نوع أكثر إيغالًا فى الحقيقة من هذا الذى أحرزه التفكير العلمى[٢٦] . وقد يجب على المرء عندئذ أن يوجه إليه كلمات شخصية أخرى من شخصيات (ثلاثيته) : [٢٧] « لقد انتقم الدين منك ، هجرته جريًا وراء الحقائق العليا فعدت صفر اليدين » قد يكون هذا البحث عن النفس مقدمة لاتجاهات جديدة متميزة فى التفكير المصرى ، ولكن قطاعًا عريضًا من الأدب المتداول الآن لا يخول لنا بالقدر الكافى أن نفترض أن الدين هو دافعه أو قوته المحركة . وسواء تمسك هؤلاء المعاصرون فى مصر بما للضمير من مكانة سامية ، أو صوروا بطلهم محتجًا على ما آل إليه من تأليه ذاته ، وسواء نحوا الشعور والانتماء الدينى جانبًا أو أخضعوه ليكون فى خدمة غاية دنيوية ، فإنهم - مثل كثير على شاكلتهم - جعلوا للإنسان مكان الصدارة فى عالمهم .

---

(٥) حين راجعت ندوة مجلة **الهلال** فى العدد المذكور ، وجدت من المفيد أن أفيض قليلا فى الترجمة حتى ألقى الضوء على كلام المؤلف هنا . (المترجم) .

هوامش البحث

(1) J.Heyotyth - Dunne . Introduction to the History of Education in Modern Egypt . London . 1938 . p.980 .

(٢) عباس محمود العقاد : سعد زغلول - سيرة وتحية (القاهرة ١٩٣٦) ص ٣١.

(3) A.Hourani. Arabic Thought in The Liberal Age (Between 1798 - 1939). London. 1962 .

(٤) **من بعيد** (القاهرة ١٩٣٥) ص ٢٢٩.

(٥) **مستقبل الثقافة في مصر** (القاهرة ١٩٤٤) ص ٦٩. وبعرض الوقوف على آراء طه حسين في الدين راجع :

P.Cachia. Taha Hussayn. London. 1956. esp. Pp.78 - 81 .

(٦) القاهرة ١٩٦١.

(٧) الجزء الثالث ، **السكرية** (القاهرة بدون تاريخ) والاقتباس من ص ١٧٦ إلى ص ١٧٨.

(٨) مجموعة من ست مسرحيات قصيرة ظهرت تحت نفس العنوان (القاهرة ١٩٦٢) ولنفس المؤلف مسرحية من خمسة فصول باسم **مولد الهدى** مسرحية إسلامية (القاهرة - بدون تاريخ) .

(٩) مسرحية « مؤمنة جاهدت » من المجموعة السابقة ، ص ٦٩.

(١٠) « معجزات وكرامات » في مجموعة **أرني الله** (قصص فلسفية) (القاهرة بدون تاريخ ص ١١٨ إلى ص ١٣٠ وقد ترجمها إلى الإنجليزية Denys Johonson - Davies باسم Miracles for Sale في مجموعة :

Modern Arabic Short Stories, O.U.P. 1967, pp. 114-9 .

(١١) (القاهرة - بدون تاريخ) وقد منحت الرواية جائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة ١٩٥٧م .

(12) London. 1959 .

(١٣) ص ٧ - ٣٧ من مجموعة تحمل نفس الاسم (القاهرة ١٩٦٢) .

(١٤) فؤاد دوارة : **عشرة أدباء يتحدثون - أحاديث مع عشرة أدباء بارزين** - (القاهرة ١٩٦٥) ص ٢٥٧.

(١٥) السابق ص ٢٢٨ - ٢٤٥.

(١٦) **مع الإنسان في الحرب والسلام** (القاهرة ١٩٦٤) .

(١٧) القاهرة ١٩٥٦.

(١٨) فؤاد دوارة: المرجع السابق، ص ٢٥٥ - ٢٥٧.

(١٩) القاهرة ١٩٣٦.

(٢٠) انظر تعقيب المؤلف في صفحة ١٣ من النص.

(٢١) انظر على سبيل المثال، محمد محمود زيتون: **ميلاد النبي** - مسرحية شعرية (القاهرة ١٩٨٤) ص ٣٥، ومحمد عطا: **أرض الصبر** - رواية (القاهرة - بدون تاريخ) ص ١٠.

(٢٢) القاهرة - بدون تاريخ (١٩٦٣؟).

(٢٣) نشر العمل الروائي مسلسلا في جريدة **الأهرام** (من ٢١ سبتمبر إلى ٢٥ ديسمبر ١٩٥٩) وأعيد نشره في كتاب (بيروت ١٩٦٧).

(٢٤) **السكرية** ص ١٠٩.

(٢٥) ندوة الهلال «التعاون بين الإسلام والمسيحية»، **الهلال**: ٥٧/٢ (فبراير ١٩٤٩) ص ٢١ - ٢٦.

(٢٦) من أجل دراسة شافية في تلك الروايات الأخيرة انظر:

S. Somekh, **The Novels of Najib Mahfuz-An Appraisal**, Oxford, Phil. D. Dissertation, 1968 (unpublished).

(٢٧) **السكرية**، ص ١٢٦.

* * *

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

معهد البحوث والدراسات العربية

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES

عضو اتحاد الجامعات العربية